(٣)

أحوال ومقامات
معرفة وخيالات

حديث الجمعة

١ صفر ١٣٨١ هـ - ١٤ يوليو ١٩٦١ م

حالي وحالك.. أصلي وأصلك.. مقامي ومقامك.. علمي وعلمك.. رأيي ورأيك.. أناي وأناك..

هكذا يريد أن يتحدث الناس - وقد تحدثوا- - وفي هذا تعارفوا - وهكذا يريد أن يتعامل الناس - وقد تعاملوا - فما طاب لهم بذلك حديث، ولا خلصت لهم معرفة، ولا استقامت لهم في الله طريق. وهكذا يريد أن يتعارف الناس ثم هم يزعمون أن هذا حديث في الله وما قدروه حق قدره، وحديث في الناس ما أدركوا فيهم حكمته، وحديث في الدين ما استقامت لهم شرعته. يزعمون أنهم بهذا يتواصون في الحق وهم يجحدوه، وأنهم يتذاكرون في الله وأنه يظاهرهم وأنهم مظاهروه.

أي حال للغريق الذي لا يعرف خلاصا ولا سفينة! وأي مقام للمعدوم المتخاذل المنقطع عن كل شيء، الفاقد لكل شيء الذي يفتقر إلى أي شيء! الذي لم يدخل بابا ولم يحل بمدينة! إن صادق الحال في الله من لا حال له، وصادق المقام في الله من لا مقام له. حاله مواجهه، ومقامه عبده، ولا مواجهة له إلا بوجهه، ولا عبودية إلا بمسيحه. فأي مقام لوجه الله؟ وأي حال لمسيح الله؟

إن الله يقلب القلوب والأبصار، وهو الواحد الصمد، الفرد الأحد.. فهو الواقع والقيام.. وهو الهدف والغاية.. وهو السبيل والطريق.. وهو الشأن لمن أراد أن يكون ذا شأن.

الظاهر والباطن هو الله، والقريب والبعيد هو الله، والصغير والكبير هو الله، واللطيف والكثيف هو الله، هو الواحد الأحد.. لا شريك له ولا موجود معه.. لا إله إلا الله.. فأي مقام لمن وجده! وأي حال لمن اتحده! إنه الوجود لمن وجده وما وراء الوجود لمن عبده. له المثل الأعلى في المشهود وله المثل الأعلى في المقصود.

أي مقام لمن أراده؟ وأي مقام لمن عبَّد نفسه له؟ أي حال لمن أدرك عدمه عن أناه وقيامه عبدا لمعناه؟ ما هكذا بحال ومقام يتحدث الناس في الله متفاضلين وهم فيه أجمعين، إذا أرادوا أن يتواصوا فيه بالحق، وأن يسلكوا الطريق للتواصي بالصبر، وأن يتذاكروا في الله ليدخلوا حصن لا إله إلا الله، فيقومون بأنا وبأنت وبهو فيمن لا شريك له متحدين، فمن الناس من تستهويهم لذائذ الأحوال ووهم المقام، وينسون وحدانية الله، ومنهم آخرون يدورون حول أنفسهم في خيال وادعاء وكبرياء بوهم الحق لهم دون غيرهم.. فيدورون في دائرة أحوالهم من نفوسهم التي يقومون، وفي وصف مقامهم الذي يزعمون.. فلا يريدون أن يمزجوا بين ما يقومونه بوصف أناهم وبين ما يقدرون أنه غيرهم من بيئة معناهم ومن بيئة دنياهم.. يزعمون أنهم يتلقون من عَلٍ، وأنهم بهذا التلقي في غنى عما قدم غيرهم من أهل المعرفة، ممن يقومون بذكراهم أو بمبناهم في قيام بين الناس.

هؤلاء الناس الذين يتخيلون أنهم يتلقون من الله عليهم قائم، وأنهم بذلك عباد شهادته عينا لربوبية غيبه، وأن الله معلمهم بما يتلقون من أعلى أو ممن هو عليهم، لا بأس من اعتزازهم لأنفسهم. فالإنسان يحيا بوحي ضميره في مبناه من غلاف معناه، ومن لم يَحيا ضميره فيُحيي فيه قلبه فلا حياة له، ولم يبدأ الحياة...

ولكن هل نعيش في بدء من أنفسنا دون مواصلة به إلى سابق بدء ونحن على دين من سبقنا لنا رسولنا على سنن من رسل، ولنا إمامنا على سبق من حق، وله أوليتنا على سرمدي من أولية، وله في الله أوليته على وعد بتكرار، وعلى أمر بتكاثر، وعلى هدي بأسوة وقدوة؟ أنبدأ بمناسكه ولا ننكر على كتابه، ثم نحن لا نقوم في مواصلته، ولا نرتبط بقديمه، ولا نقوم في حاضره، ولا نواصل جديده من قديمه، أو حاضره من سبقه، ثم نحن على عُزلتنا نتلقى من عَلٍ.. نتلقى من أعلى.... نتلقى من عَلٍ في انفراد مقطوع عن إدراك دوام قيامه، ودوام معناه، ودوام إلهامه، ودوام وحيه، ودوام حقه، ودوام أحواضه، ودوام أعلامه، ودوام رجاله؟ وهو الخاتم البادئ. والثابت المتكرر. والحجاب القائم الدائم.

إن رسول الله قد علمنا وقد أعلمنا: أن الله قائم على كل نفس بما كسبت، وأن الله من وراء كل نفس محيط.. وأن كل نفس بما كسبت رهينة، وأنها على نفسها بصيرة، وأن الله محذرنا نفسه في معناها من أنفسنا.

إن رسول الله قد علمنا وقد أعلمنا أنه لنا وجه الله، وأن الناس له جميعا وجهه من الله.. رأى الله فيمن حوله بالله في ذاته محيطا بوجهه الجامع للناس. وعلم أن الله مشهده للناس وجها له - ما رحمهم به -. وأن الله له دائرة إحاطته ودائرة قيامه كما هو لكل كائن بشري، ولكل كائن آدمي،

ولكل كائن إنساني. وهو بذاته ومعناه لدائرة إحاطته ولدائرة قيامه نقطة مركز. والدائرة دائما تنتسب لمركزها يعنونها وتعرف به وهو لها إحاطة بدوره. النظرة الأولى له أي لهذا المركز فيرى الناس جميعا في دائرته وجوها لله منظورة منه. والنظرة الثانية عليه إذ يرون فيه جميعا وجه الله منظورا لهم. ولا يفارق هو النظر إليهم وجها لله، ولا يغيّرهم عنده النظر إليه وجها لله عما هم عنده وجها لله. الناس فيه وهو في الناس، وهو ليس غير الناس، والناس ليسوا غيره.. إنه من الناس والناس منه، والكل في الله، والكل من الله، والكل إلى الله.

من آمنوا بالله، من آمنوا بالحق، من آمنوا بالحقيقة، من آمنوا بوحدانية الله، من آمنوا بأنه لا إله إلا الله، تهيأت لهم السبيل لشهادة أن محمدا رسول الله.. ومن أحبوه ومن صاروه ومن بقوه، ومن فنوا عن كل غير له.. من رأوه حياتهم وقيامهم، وحبهم وعشقهم، ودينهم وحقهم، وإمامهم ووجودهم، ونفسهم وعقلهم ومعناهم.. من رأوه كذلك دخلوا في حصن الله، وحصن وجه الله، وبه شهدوا أنه لا موجود بحق إلا الله، فأحسنوا شهادة أن لا إله إلا الله فدخلوها حصنا لهم، وشهادة أن الله أكبر فساروا فيها وِجاءً لهم من الارتداد لنفوسهم بكبريائهم.

كيف يقوم قائم في دينه ويقوم فيما يقوم فيه الغير بدينه، ثم يرى في نفسه انفرادا عن الناس، فلا يؤمنهم ولا يحياهم، ولا يتلقى الحكمة في أحد منهم، ويرى الناس في انفراد عنه، ينكرهم ويخشاهم وهو إن تكشف له شرهم فبعين شره، وإن اطمأن لخيرهم فبعين خيره، فالناس هم الناس أبدا وسرمدا، ثم هو يقول بعد ذلك إنه في دين محمد وإنه في وحدانية الله؟ ووحدانية الله تشمل الناس جميعا، والمحمدية للناس في أهل الصفاء سرمدا، تربطهم ما ترابطوا ظاهرا بظاهر، وباطنا بباطن.

كيف يكون في دين محمد وفي وحدانية الله من يرى الحق بدءا منه لغيره دون ارتباط بسبق له إليه يضاف إليه الأمر، وبه يكون الارتباط، فيفرض حقه ببدئه على غيره من الناس بحال له يزعمها، وبأحوال في الناس يحكمها، وبعلم في الله يبدأه في خلق الله الذي كل خير فيه ينكره ويجحده؟ كيف يكون ذلك والخير في أمة محمد باق غير معدوم. والخير به مجدد غير مبدوء؟ ولكن هذا كان، وهو اليوم كائن، وكذلك في كل يوم يكون.

أعوذ برب الفلق من شر ما خلق.. أعوذ بالأحد.. الصمد لا جديد فيه.. لم يلد إذ لا فلق فيه ولم يولد إذ لا بدء له. لم يوجده موجد ولم يخلقه خالق. ولم يبدأه بادئ ولم ينشئه منشئ. ولم يكن له مكافئا أو مماثلا إذ لم يتعادل فيه أمران، فالأمر كله له والوجود كله له، والوجه المشهود والوجه المشاهد كله له.. يلحق بلطيفه، فيشهد برحمته وحكمته وتصريفه.. هو اللطيف الخبير، وهو القائم المختبِر.. ولم

يخرج من دائرة وجوده الكثيف المختَبَر والكثيف المتطور، واللطيف والكثيف، الموجود والمتواجد. تستحيل معاني الغير معه مدعوا وداعيا، محبا ومجافيا.

إن مقام صاحب المقام أن لا مقام له. وإن حال صاحب الحال أن لا حال له. وإن بقاء الموحد الصادق أن لا وجود له مع موجده، يحل في الله فيفنى وتمسكه يد الله فيبقى.. وما جد عليه حلول وما جد عليه بقاء، {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا}[1]. ولا يحل الله - بسعته - في العبد - في ضيقه - ولكن الخلق حال في العبد والعبد حال في الله، كشف له أم لم يكشف. فإذا كشف له الغطاء عنه وجده في الله حال، وبيد الله قائم، ووجده الحق للخلق من الله في الله فلا وجود له.

هذا مقام من يدرك أن لا مقام له، وأن المقام كله لله، وأن الوجود كله لله، وأن القيام كله لله، وأن السيادة والسعادة لمن يدخل في حصن لا إله إلا الله، وأن الحياة والبقاء والدوام لمن تمسكه يد الله، على ما أمسكت يد قدرته قدوته وأسوته عبد الله ورسول الله، يدخل في قائم عبده وقيوم أمره فيبقى بشهادة أن محمدا عبد الله، وأن محمدا رسول الله، وأن محمدا حق الله، وأن محمدا ذكر الله، وأن محمدا اسم الله، وأن محمدا وجه الله، وأن محمدا معنى الله.

هذا هو الحال عند من عامل الله فوجده. وهذا هو المقام عند من آمن بالله فكانه. وهذا هو المقال عند من استقام في الله فأقامه. وهذا هو اليقين عند من مسح عن نفسه إلى انسانه. وهذه هي المعرفة عند كلمة الله وروحه ومظهر إرادته على ما يجب أن تكون عليه أمور كل انسان. وهذا هو الانسان على ما يجب أن يطلب كل انسان. ولكن الناس عن الحق في أنفسهم يعمهون، وباسم الله يثرثرون، وفي طلب الله لا يصدقون، وباب الله أمامهم في دوام لا يستقبلون، وعنده لا يقفون، وله لا يطرقون، وطريق الله منه لا يسلكون. وإذا غاب عن ناظرهم بالتوائهم عنه لا يبحثون، وعليه لا يأسفون، وإليه لا يسترشدون، فهم في غنى بما يدركون.

إن الإسلام دين القيمة ولأهله يسلم الناس، فهو دين القيمة على أنفسهم ومن يشهدون في الناس أنفسهم، فيسهرون على أنفسهم في سهرهم على الناس، ويخدمون أنفسهم في خدمتهم الناس، ويأخذون بيد أنفسهم عندما يأخذون بيد الله فيهم يد أنفسهم في الناس.. عند ما ينشرون أمر الله على الناس وفي الناس ومن الناس.. عبادا للرحمن يمشي بهم الحق من الله على الأرض يقول: ها هو أنا ذا هو أنا بينكم.... يمشون على الأرض هونا (هو- أنا). يقول بهم للناس: ها أنا السلام لكم - وإن خاصمتموني - خلقتكم وأنشأتكم وأبدعتكم وقدرتكم وأقرأتكم وأنطقتكم وكلكم خصيم مبين. أحسنت صوركم وهيأت باطنكم، وها كلكم مبلس غير أمين. وما كان الله بحقه عليكم لكم بضنين. ولكنكم تكزون مخدوعين من أنفسكم على ما وهمتم أنه الحياة وأنه الخير، وأنتم في عارية من أمر الحياة.

إن الله في هذه الدار يبتلي أهلها وليس فيها بمعطيهم.. إنه بالخير مبتليهم وبالشر مبتليهم ليعرف أيهم أحسن عملا في معرفة الخلق لحسن عملهم.. إن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون.. إنهم في دار ما قبل الحياة، وحتى ما قبل البلاء أو الجزاء.. في دار الأمانة.. في دار الاختبار.. في دار بدء الأنا أو الهو أو الأنت.. في دار القضاء والقدر.. في دار الكتاب.. في دار ما قبل الحيوان. إنكم في داركم الآن أقلام قدرته وصحائف كتبه، تكتبون بأقلام قدرته بكم ألواح عوالمه منكم، تكتبون ما يكون لكم في دار الحياة من دور الحيوان، ثم أنتم بما تحيون به في دور الحيوان تحنون إلى أرضكم أرض أمومتكم فتردون بسماء أبوتكم لتواصلوا الحياة، إما بسماء أبوتكم لكم في رجعتكم أبناء لها، وكلمات منها، وكتب عنها رسالات في الناس.. وإما على ما كنتم، وعلى ما زعمتم لأنفسكم بأوهامكم، لتذوقوا العذاب ثم يقضى بينكم، كلما نضجت جلودكم وذواتكم بدلتم جلودا غيرها لتذوقوا عذاب القطيعة، عذاب الغفلة، عذاب الجهل، عذاب العزلة، عذاب الأنانية. وعلم الله لكم يقول ما نحن بمسبوقين.. وما نحن في عذابكم براغبين.. ولكن حتما على ربكم رب الناس مقضيا من ربه ورب العالمين ليعيد النشأة فيما لا تعلمون، وليعيد خلقكم من صلصال من حمأ مسنون، بما لا يخرج عن قانون طبيعته وإرادة فطرته، من صلصال كالفخار يتطور لتكون في حرارة صهره زجاجة ذواتكم فيها مصابيح للصدور من قلوبكم. إن رب الناس من ربه مأمور كما أنتم منه مأمورون.

تظنون بالله الظنون، والله حق قدره لا تقدرون، وما حق قدره إلا العجز عن تقدير رحمته، فضلا عن تقدير قدرته. وقد أراد بكم الخير وما أراد بكم الضر كما أعلمكم، ولكنه أراد أن تنشئوا أنفسكم بعملكم على ما علمكم لتعلموا عنه، ولتتواجدوا فيه منه من إرادتكم مظهر إرادته بكم، لتعرفوه عبادا له.. عبادا هم بوحدانية الله في أحدية عين ربهم، أدركوا إرادة ربهم وعملها في إرادتهم وأثرها، عرفوا ربهم ربا محيطا، مثقال حبة من خردل في السموات أو في الأرض لا يعزب عن علمه، ولا يخرج من مظهر ذات وجوده، وذلك في معرفتهم عنهم أنهم من يعمل منهم مثقال ذرة من خير أو من شر يره، ويحيط به ويعلمه فيقومه، فيعلم عن ربه في علمه عن نفسه، ويعلم عن رب ربه في علمه، بإحاطته بعبد ربه له من إنشائه المتخلق معه باقتدائه بخلقه.

وهكذا.. يسلك إلى الله معراجا في نفسه بتطور ذاته ومعناه، وبإحياء قلبه وبقيام مبناه. في إحاطة لطيف قلبه بكثيف مبناه وإحاطة لطيف مبناه بقائم كونه، يحيط بمبناه قالبا وذاتا، قلبا لكونه مادة وذاتا، فيدرك قلبه روحا حيا منبعثا منتشرا بذاته على سعتها، إذ يرى قلبه منبعثا منفعلا روحا محيطة بذاته، مبعوثا من سويدائه بفعل إطلاقه ومطلقه ومحرره، وهكذا ليتقلب بين قلبه وقالبه، محيطا أو محوطا، ربا وعبدا، حقا محتجبا أو مسفرا.. طورا يطويه وطورا ينطويه.

فالمرء بين قلبه وقالبه في كثيفه، وبين عقله ونفسه في لطيفه، وبين معناه وروحه في قائم حقيقته، يتواجد وجودا مزدوجا يظهر بأحده ويبطن بالآخر.

هكذا يقلب الله القلوب والأبصار وهو من وراء الكل محيط، وعلى كل نفس قائم، وبكل ذات آخذ بالنواصي إلى الخير بأيد عاملة لا شرقية ولا غربية، ولكن حكمته ولا قهر منه، ولكن قربه ورحمته. ما ظهر في شيء مثل ظهوره في الإنسان، وما عطف على شيء برحمته عطفه على الإنسان. خصه باصطفائه، وأَهَّله لابتلائه، وخَلَّقه لنفسه، وعبَّده لمعناه. ما خلقت الجن والإنس.. ما خلقت الملك والروح.. ما خلقت عوالم الوجود إلا لأُعرف لنفسي لا ظهور لي، ولا غيب لي، ولا قدرة غير قدرتي، ولا شهود غير شهودي، ولا غيب إلا غيبي. لا إله إلا أنا. الكل عبدي والكل وجهي والكل رسولي والكل قيامي. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أضواء على الطريق

(إن الإنسان على هذه الأرض ما زال في أول درجات السلم للحياة والتطور. وهو يرتقي هذا السلم ببطء شديد. وهو بين ما يسفله من هاوية العدم، وبين ما يعلوه من كائنات التواجد، متراخ لا يساهم بجهد. وبذلك كانت سلبيته مرجحة لكفة، لعدم تمسك به على يد التواجد تجذبه إليها. إنه لا يريد أن ينبثق من حجب الظلام بإرادته الموهوبة، وعاريته الخالقة. إنه لا يريد أن ينمي نواة إرادته المقدسة. لا يريد أن يشعل مصباح قلبه. ولا يريد أن يصلصل زجاج مصباحه. لا يريد أن يكون قلبا لما حوله. إنه فرِح بشعوره بالوجود من العدم. وجزع لخاطر العودة إلى العدم من الوجود.)

(من هدي المرشد)

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة فاطر - ٤١